تأثير الإسلام في شعر نابغة بني جعدة

The Influence of Islam in the Poetry of Nabigha Bani Ja'dah

عمر عبد الهادي ديان*

Abstract

In the pre-Islamic era there were a large number of famous poets whose poetry had a great impact on the Arab society and they were blue eyed of the society due to their poetry. When Prophet(peace and blessing of Allah be upon Him) conveyed the message of Islam to the people, immediately most of the Quraish and the Arab poets didn't accept Islam although there is a reasonable number of poets who embraced Islam.

Among those who accepted Islam was Nabigha Ja'di. Since he has two phases of his life i.e. non-Islamic and Islamic, if his poetry was manifestation of pre Islamic Arab society and free of religious influence before he embraced Islam, his poetry was reflection of truth of Islam and its teachings as he formed them in his poetry. While affirming his non Islamic way of life that it was based upon ignorance and negligence, he acknowledged that this is a greatest favor of Allah and His blessing upon him that he embraced Islam, followed its teaching and wore its dress before passing away his soul.

While studying the poetry of Nabigha impact of Islam can be observed as he used his poetry not only for worldly purpose but he used it for describing the virtue of Islam and calling people towards Islam and Jihad in the way of Allah. Being a Muslim second phase of his poetry is an ideological, thought provoking and persuading people to the Holy Qur'an and Sunnah

لقد كان للإسلام تأثير عظيم في الشعراء في صدر الإسلام، ظهر ذلك جليا في أشعارهم، وذلك بسبب روح الدعوة الجديدة، وسماحة تعاليم الديانة الحنيفية، فراح كثير من الشعراء الموالين لرسالة نبينا محمد ﷺ يصدرون عن منهج ديني، مستفيدين من معطيات القرآن الكريم، منهم النابغة الجعدي(١)، ويظهر هذا التأثير في شعره من خلال التالي:

---

* طالب الدكتوراة بكلية اللغة العربية و آدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، باكستان.

البند الأول؛ شعر رحلة الحياة، والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام

إن توثيق رحلة الحياة في الشعر أمر جديد على الشعر العربي في صدر الإسلام، والجعدي بعدما رأى طول عمره –وذلك في خضم الأحداث العظيمة؛ التي نقلت الحياة العربية من طور تقليدي، إلى طور فيه نتاج وبناء– راقَ له أن يدندن برحلته في الحياة، ونشأته فيها، ووصوله إلى عتبت الإسلام، ودخوله فيه؛ لينعم بسعادة الدنيا والآخرة، فها هو يقول عن رحلته [من بحر المتقارب] (٢):

لَبِســـــــتُ أُناســـــــاً فَـــــــأَفنَيتُهُم   وَأَفنَيـــــتُ بَعـــــدَ أُنـــــاسٍ أُناســـــا
ثَلاثَـــــــةَ أَهلِـــــينَ أَفنَيـــــتُهُم   وَكـــــانَ الإِلـــــهُ هُـــــوَ المستآســـــا
وَعِشـــــتُ بِعَيشَـــــينِ إِنَّ المنُـــــونَ   تَلَقّـــــى المعَـــــايِشَ فِيهـــــا خِسَاســـــا
فَحِينـــــاً أُصـــــادِفُ غِرّاتِهـــــا   وَحِينـــــاً أُصـــــادِفُ مِنهـــــا شِمَاســـــا
نَشَـــأتُ غُلاَمـــاً أُقاسِـــي الحُـــروبَ   وَيَلقـــى المقاسُـــونَ مِـــنِّي مِرَاســـا

يحدثنا الشاعر عن طول رحلته في الحياة، إذ عاصر ثلاثة قرون من الناس(٣)، وتملَّى بهم دهرا طويلا، وكلهم قد انقضوا وهلكوا، وبقي الجعدي متأملا بالله تعالى، فالله هو المستعطَى(٤)، ويحكي لنا أنّ حياته كانت على طبقين، طبق يسلم فيه من المنون —وهو نوائب الدهر(٥)– فيكون في غرة منها، وطبق آخر لا يسلم منها؛ والتي تجعل المرء ذليلا لشدة بلائها؛ فيلاقي صعوبة وشدة، ومع ذلك فقد نشأ الشاعر نشأة قوية، تدرب فيها على الحروب، وأصبح فارسا قويا، يعرفه الناس.

ومازال الجعدي كذلك حتى جاء الله سبحانه بالإسلام، ولم يقف أمامه متفرجا، بل أسلم واتبع هداه، فيقول عن ذلك [من بحر الطويل] (٦):

رَكِبـــتُ الأُمُـــورَ صَـــعبَها وَذَلُولَهَـــا   وَقاسَـــيتُ أَيَّامـــاً تُشِـــيبُ الحَـــزَوَّرا
تَبِعـــتُ رَسُـــولَ اللَـــهِ إِذ جـــاءَ بالهُـــدى   وَيَتلُـــو كِتابـــاً كـــالمجَرَّةِ نَـــيِّرا
وَجاهَـــدتُ حَـــتّى مـــا أُحِـــسُّ وَمَـــن مَعِـــي   سُـــهَيلاً إِذا مـــا لاَحَ ثُمَّـــتَ غَـــوَّرا
أُقِـــيمُ عَلـــى التَقـــوى وَأَرضـــى بِفِعلِهـــا   وَكُنـــتُ مِـــنَ النـــارِ المخُوفَـــةِ أَوجَـــرا

وَطوَّفــــتُ في الرُهبـــانِ أَعبُـــرُ دِيـــنَهُم   وسَـــــيَّرتُ في الأَحبــــارِ مَــــا لَم تُسَــــيِّرا

إنه يؤكد هنا ما أخبرنا عنه في الأبيات السابقة، من ركوبه للأمور الصعبة، والسهلة، وذلك كله في طريق ارتحاله في الحياة، التي قاسى فيها أياما صعابا، تشيب الغلام اليافع(٧)، وكان بحاجة ماسة إلى مخرج من هذا البلاء الذي يكتنف حياته، فجاء الإسلام، واتبع رسول الله ﷺ الذي جاء بكتاب كالمجرة نير، وشارك في الجهاد في سبيل الله تعالى، وذهب إلى أماكن لا يحس فيها بسهيل إذا ما بدا أو غاب، ولعله من شدة انهماكه في الجهاد؛ لا يجد وقتا لمراقبة هذا النجم العجيب، أو أنه ودع الهوى؛ فسيهل مما يذكِّر بالأحبة، وكلاهما حسن، فيقيم على التقوى ويرضى بها بديلا؛ حذر النار، وقد أخذ العبرة من دين الرهبان، واطلع على سيرة الأحبار؛ بقدر لم يتيسر للأحبار أنفسهم.

هذا ويحكي لنا الشاعر عن غفلة الناس الذين عاش بينهم، وعن نفسه قبل مجيء الإسلام، وهو طور عاشه الشاعر، وقد نجا منه بالهداية، ويخبرنا عنه هنا للعبرة، والعظة، فيقول [من بحر البسيط] (٨):

إمَّــا تَــرَي ظُلَــلَ الأَيــامِ قَــد حَسَــرَتْ   عَــنّي وشَمَّــرْتُ ذَيْــلاً كــانَ ذَيَّــالا
وَعمَّمتـــني بَقايـــا الـــدَهرِ مِـــن قُطُـــنٍ   فَقَـــد أُنَضِّـــجُ ذا فِـــرقينِ مَيَّـــالا
فَقَــد تَــرُوعُ الغَــوَاني طَلعَــتي شَــعَفاً   يَنصُصــنَ أَجيــادَ أُدْمٍ تَرتَعــي ضَــالا
في غُــرَّةِ الــدَهرِ إذ نُعمــانُ ذُو تَبَــعٍ   وَإذ تَــرى النــاسَ في الأَهــواءِ هُمَّــالا
حَــتّى أَتَــى أَحمَــدَ الفُرقــانُ يَقــرَأُهُ   فِينــا وَكُنَّــا بِغَيــبِ الأَمــرِ جُهَّــالا
فَالحمــدُ لِلّــهِ إذ لَم يــأتِني أَجَلــي   حَــتّى لَبِســتُ مِــنَ الإِســلامِ سِــربالا

يبدأ حديثه مخاطبا امرأة؛ قائلا لها: إن تري ظلل الأيام قد كشفتْ عني الستر، ورفعتُ ذيلا كان طويلا-يعني قصر شعره الطويل- وشيبتني بقايا الدهر فصار شعري أبيض، حتى غدوت كمن لبس عمامة بيضاء، فلا يغرنك ذلك؛ فقد أُحكم ترجيل شعري، وأجعله مفروق فرقين، عندئذ تُعجب طلعتي الفتيات الجميلات، وتوهج قلوبهن بحبي(٩)، فينصصن رقابهن إلي. ويشبههن

بغزلان ترتعي؛ فترفع رقابها ناظرة إليه حين مروره، وهذا كله في غرة الدهر، وغفلة الزمان، وكان هذا زمن النعمان[١٠] ذي الشأن العظيم، والملك المتبوع، والناس في هذا الوقت يسيرون خلف الأهواء؛ عبثا بلا هدف. فاستمرّ ذلك الحال حتى أفاء الله على الإنسانية بالرحمة، وأرسل نبيه محمّدًاﷺ، وأنزل عليه الفرقان، وقام بدعوة العرب الجهلاء إليه، فيحمد الشاعرُ اللهَ تعالى على أنه لم يَسُقِ الموت إليه؛ قبل أن يلبس لباس الإسلام، وهذه هي النعمة الكبرى، والمنة العظمى.

وفي النص التالي يبين طول عمره، وتنقله في الآفاق؛ بحثا عن حياة يرجوها، شأنه شأن طلاب المعالي في زمنه، ويستقر به المقام في أحضان الإسلام العظيم؛ فيقول [من بحر الكامل][١١]:

قالَت أُمامَةُ كَم عُمِرتَ زَمَانَةً ... وَذَبَحتَ مِن عِترٍ عَلى الأَوثانِ

وَلَقَد شَهِدتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها ... فِيها وَكُنتُ أُعَدُّ مِ الفِتيانِ

وَالمنذرَ بنَ مُحَرِّقٍ في مُلكِهِ ... وشهدتُ يَومَ هَجائِنِ النُعمانِ

وَعُمِرْتُ حَتّى جاءَ أَحمَدُ بالهُدى ... وَقَوارِعٍ تُتلى مِن الفرقانِ

وَلَبِستُ مِ الإِسلامِ ثَوباً واسِعاً ... مِن سَيْبِ لا حَرِمٍ وَلا مَنّانِ

لقد عمر كثيرا، فشارك العرب في ديانتهم الوثنية، وشهد عكاظ قبل محلها، وهو فتى قوي، وأدرك المنذر بن محرق[١٢]، وشهد يوم هجائن النعمان أخي المنذر بن محرق، والهجائن النوق المهجنة، وقد كان لها يوم معروف[١٣]– وهذا يعني أن حياته بدأت قبل الإسلام؛ بزمن يقدر بعشرات السنين– وقد بيّنّا ذلك في ترجمته– وامتدّ عمره حتى جاء الرسول ﷺ وسمع القرآن، فكانت قوارع تقرع الباطل، وتدخل النور إلى القلب؛ فآمن، وتعلم الدّين، وصار له فيه باع، وذلك كلّه من كرم الله تعالى.

ومهما يكن؛ فإن شاعرنا قد ارتحل في حياته كثيرا، يبحث عن مجد، لا يدري عن كنهه شيئا، ولكن نفسه الأبية لم تبارك له المكوث في دياره؛ راعيا للإبل، بل حثته على التطواف، فيقول [من بحر الطويل] [١٤]:

وَما زِلتُ أَسعَى بينَ بابٍ وَدارةٍ ... بِنَجرانَ حَتّى خِفتُ أَن أَتَنَصَّرا

وما وصل إليه الجعدي من الهداية، والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، هو نتاج تجربة طويلة، تمتد في أحضان الزمن سنين طويلة، وأعواما مديدة، يشير إليها، كالموثق لها، فيقول [من بحر الوافر] (١٥):

فَمَــن يَــكُ سـائِلاً عَـنّي فَـإِنّي ... مِـنَ الفِتيـانِ في عـامِ الخُنـانِ

مَضَـت مِئَـةٌ لِعـامِ وُلِـدتُ فيـهِ ... وَعَشـرٌ بَعـدَ ذاكَ وَحِجَّتـانِ

فَقَـد أَبْقَـتْ صُـروفُ الـدَهرِ مِـنّي ... كَمـا أَبقَـتْ مِـنَ السـيفِ اليَمـاني

تَفَلَّـلَ وَهـوَ مَـأْثُورٌ جُـرازٌ ... إذا جُمِعَـتْ بِقائِمِـهِ اليَـدانِ

كان عمره حين قال هذه الأبيات، مئة واثنتي عشرة سنة، وقد كان فتيا عام الخنان(١٦)، وهو الآن قد أنهكته صروف الدهر؛ حتى صار كالسيف اليماني القوي؛ المتوارث من السلف إلى الخلف؛ فتثلّم من كثرة المقارعة به في المعارك. وهذا العمر الطويل، هو لحظة في صفحة الدهر، يقول عنه [من بحر الطويل] (١٧):

وَمَـا عُمُـري إلا كَـدَعوَةِ فـارِطٍ ... دَعـا راعِيـاً ثمَّ اِسـتَمرَّ فـأَدبَرا

هكذا العمر، لحظات وينقضي، كفارط تقدم قومه إلى الماء، فدعا راعيا؛ ليدله عليه، فدله، وشرب منه، وعاد إلى قومه مخبرا.

البند الثاني؛ شعر الدعوة

شارك الجعدي بالدعوة إلى المعروف؛ استجابة لداعي القرآن، وامتلاكا للنفس الأمارة بالسوء، وحبا في نشر الخير في الناس، والبعد عن العصبية الجاهلية؛ لتحقيق قواعد الهداية، والسعي لجمع شمل الأمة العربية أولا، ثم العالمية ثانيا؛ تحت راية الإسلام العظيم، فيقول [من بحر المتقارب](١٨):

وَلَيْسَـتْ بشَـوْهاءَ مَقْبُوحَـةٍ ... تـوافي الـديارَ بوجْـهٍ غَـبِرِ

فَـذَر ذا وَعـدِّ إلى غَـيرِهِ ... فَشَـرُّ المِقالَـةِ مـا يُعتَسـرَ

وَمـا البَغـيُ إلاَّ عَلـى أَهلِـهِ ... وَمـا النـاسُ إلاَّ كهـذي الشَـجَر

تَـــرَى الغُصـــنَ في عُنفُـــوانِ الشَـــبا ... بِ يَهتَـــــزُّ في بَهجـــــاتٍ خُضَـــــر
زَمانــــاً مِـــنَ الــــدَهرِ ثُمَّ التَـــوى ... فَعــــــادَ إِلى صُــــفرَةٍ فانكَسَـــــر

في البيت الأول يحاكي ما ألفه من البيئة العربية قبل الإسلام، ويُظهر مشاعر العربي الأبي، ويريد بهذا البيت التهديد، وتهويل الأمر، حتى إنا لنذهب به مذاهب بعيدةً في التخيل، إذ حذف اسم "ليس" وأبقاه للخيال، وأخبر عنه بما يثير، ومعنى البيت: أن الأمر الذي أخفاه، ويهدد به؛ يوحي بداهية عظيمة, وهذه الداهية هي شوهاء مخيفة، قريبة من النيل من أعدائه(١٩)، وليست كما قد يُظن أنها بعيدةٌ لا تأتيهم، بل إنها توافي الديار، وتقترب منها بلا رحمة؛ مظهرةً للغضب الشديد، هذا الأمر متوقع من الإنسان الجاهلي؛ الذي لا يعرف سوى الانتصار للنفس، إلا أن الإسلام يأمر أتباعه باستعمال الحسنى في التعامل، فقدم هذا التقدمة؛ ليتحقق أسلوب الترغيب والترهيب.

وكان من أسلوب الترغيب عنده؛ أنه حذا حذو النصح، والإرشاد، مقتبسا ذلك من منهج الدعوة، الذي جاء به رسولنا ﷺ فضمَّن أبياته معاني قرآنية؛ بأسلوب أدبي، لا يخلو من رشاقة العبارة، والآيات التي اقتبس منها المعاني، التي يدل عليها البيت الثالث، والرابع، والخامس؛ هي: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾(٢٠) وقوله تعالى﴿إعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ (٢١).

ثم يُلحق هذه الأبيات بأبيات أُخر، يشرح فيها حقيقة دينية، أكّدها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف؛ في مواضع كثيرة، وهي القدر، فكل ما كتب الله كان؛ مهما توفرت الأسباب التي توحي بعكس ما هو كائن، يقول الشاعر [من بحر المتقارب] (٢٢):

وَكَـــم مِـــــن أَخِـــي عَلَيَـــةٍ مُقـــتِرٍ ... تَـــأَتّى لَـــهُ المـــالُ حَـــتّى اِنجَـــبَر
وَآخـــرَ قَـــد كـــانَ جَـــمَّ الغِنـــاءِ ... رَمَتْــــهُ الحَـــوادِثُ حَـــتَّى اِفتَقَـــر
وَكَـــم غائـــبٍ كـــانَ يَخشَـــى الـــرَّدى ... فَـــآبَ وَأَودَى الَّـــــذي في الحَضَـــر

وشاعرنا بهذه القصيدة، ينتقل من غرض الهجاء، والسير وفق هوى النفس، إلى أسلوب الدعوة، ومنهج ادفع بالتي هي أحسن، فمن مطلع القصيدة نفهم أن حديثا ذا لهجة شديدة؛ دار بينه وبين طرف آخر، ونبهنا إلى أنه صعب المراسل، شديد الشكيمة، لكن أمرا يمنعه من الخوض في الهجاء، ويحيد به إلى أسلوب النصح والتوجيه.

وقد كان الجعدي ناصحا في أكثر من موقف، وبذلك يسير على نهج النبوة، قال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣) فكان حقًّا على الشاعر المؤمن أن يوجّه الناس، وأن يحذّرهم مخالفة الدين، وقد فعل، ومن ذلك قوله [من بحر المنسرح](٢٤):

يا أَيُّها الناسُ هَل تَرَونَ إلى	فارِسَ بادَتْ وَخَدُّهَا رَغِما
أَمسُوا عَبِيداً يَرعَونَ شاءَكُمُ	كَأَنَّما كانَ مُلكهُم حُلُما
مِن سَبأ الحاضِرينَ مآرِبُ إذ	يَبنُونَ مِن دُونِ سَيلِهِ العَرِما
فَمُزِّقُوا فِي البِلادِ واعتَرَفُوا	الهونَ وَذاقُوا البَأساءَ والعَدَما
وَبُدِّلُوا السِدرَ وَالأَراكَ بِهِ الخَمطَ	وَأَضحى البُنيانُ مُنهَدِما

إنه بهذا الشعر ينبّه العرب المسلمين؛ إلى الاعتبار بما حلّ بمن خالف الدعوة إلى الله تعالى، فيضرب الأمثال؛ مقتديا بأسلوب القرآن الكريم، فيسوق مثالين لقومين كان لهما صولة، وجولة، أحدها قريب عهده، والآخر غابر في الزمن، وهما: فارس، وقوم سبأ، فأمّا الأوّل فقد هزمهم الله تعالى بجيوش المسلمين، وصاروا عبيدا وخدما، وأمّا قوم سبأ فقد مزّقوا كل ممزّق، وبدّلوا بجنتيهم السدرَ، والأراك، وانهار سدّهم الذي كان شريان حياتهم، وذاك كلّه استحقّوه بمعصية الله تعالى، وهذا الأمر سنة إلهية جارية في الحياة، قال الله تعالى في شأن قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ٥فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (٢٥).

هذا وقد عاش الجعدي عمرا طويلا، فجرّب الحياة، وخرج بخلاصة، أفادها إلينا بقصيدة طويلة، هي أطول قصائده، وكانت مقدّمتها، الأبيات التالية [من بحر الطويل][٢٦]:

خَلِيلـيّ غُضَّا ساعَةً وَتَهَجَّرا ... وَلُوما عَلى ما أَحدَثَ الدَّهرُ أَو ذَرا
أَلَم تَعلَما أَنَّ اِنصِرافاً فَسُرعَةً ... لِسَيرٍ أَحَقُّ اليومَ مِن أَن تُقَصِّرا
وَلاَ تَسأَلا إِنَّ الحَياةَ قَصِيرَةٌ ... فَطِيرا لِرَوعاتِ الحَوادِثِ أَو قِرا
وَإِن جاءَ أَمرٌ لا تُطِيقانِ دَفعَهُ ... فَلاَ تَجزَعا مِمَّا قَضى اللَهُ وِاصبِرا
أَلَم تَعلَما أَنَّ المَلاَمَةَ نَفعُها ... قَلِيلٌ إِذا ما الشَيءُ وَلَّى فَأَدبَرا
تَهِيجُ اللِحاءَ وَالمَلاَمَةَ ثُمَّ ما ... تُقَرِّبُ شَيئاً غَيرَ ما كَانَ قُدِّرا
لَوى اللَهُ عِلمَ الغَيبِ عَمَّن سِواءَهُ ... وَيَعلَمُ مِنهُ ما مَضى وتأَخَّرا

إنه يريد أن يقرر لدى الخليلين أولا، ثم جميع السامعين ثانيا، أمر الإيمان بما قدّر الرحمن تقدّست أسماؤه، وهذا يحتاج إلى الصبر، والبعد عن التذمّر، والتنكّف عمّا قدّر الله تعالى، فيوصي الشاعر خليليه بأن ينتظرا قليلا؛ ليوصيهما بما عنده، ثم لينطلقا وقت الهجير، وقد خصَّ هذا الوقت إمّا لأنّ الوقت قصير، والتأخّر فيه فوات للمنافع، وإمّا لما في هذا الوقت من استشعار الحَرِّ؛ المفضي إلى تذكّر نار الآخرة، ويخبرهما بصيغة السؤال؛ المراد منه التقرير، والتأكيد؛ على أنّ السرعة الآن في السير حقّ عليهما، ولقصر الوقت، وأهمية الكلام الموجّه لهما؛ يطلب منهما ألّا يسألا وألّا يجادلا، وهذه الخلاصة التي توصل إليها؛ ليست وليدة الساعة، أو المكان، بل هي خلاصة تجارب، خلص إليها بعد عمر طويل، ومع ذلك فالأمر بتحديد وجهة الانطلاق مطروح للنفس، فإن فهمت، فذاك حظها، وإن لم تفهم، فحظها أيضا، ويترتب على ذلك القيام بالواجب، أو التقصير فيه.

ثم يوجّه الشاعر نصيحة ثمينة، تعين المرء في مواجهة عقبات الحياة، وهذه هي الإيمان اليقيني بالقدر، فلا ردَّ لما قضى الله تعالى، ولا مقدّر لما ردَّ الله تعالى، وهذا يقرّره حديث رسول الله ﷺ " اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ"[٢٧] وعلى هذا فيجب على الإنسان التسلّح بالصبر، والذي لا يصبر، ويتضجّر مما قدر الله تعالى، أو يلوم؛ فإنه لا ينتفع بتضجّره، أو لومه، والملامة لا نفع وراءها، بل تهيج الغضب، وتزيد من تضجّر صاحبها، ثم لا تقرّب شيئا غير ما

قدره الله تعالى، والخلاصة أنّ الإنسان لا يعلم الغيب، و الله تعالى وحده عالم الغيب، ويشير الشاعر بهذا إلى قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(٢٨) وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾(٢٩).

وقد استفاد شاعرنا من مراس الحياة، وتعلم منها كثيرا، واصطبغ ذلك العلم بصبغة الإسلام، فصار الجعدي يناولنا الحكمة، والموعظة الحسنة، ويقدّمها إلينا شعرا، يبقى خالدا ما بقيت اللغة، فيقول [من بحر الطويل](٣٠):

لا خَيرَ فِي جَهلٍ إِذَا لَم يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إِذَا مَا أَورَدَ الأَمرَ أَصدَرا
وَلا خيرَ فِي حِلمٍ إِذَا لَم تَكُن لَهُ ... بَوَادِرُ تَحمِي صَفوَهُ أَن يُكَدَّرا
فَفِي الحِلمِ خَيرٌ مِن أُمورٍ كَثيرةٍ ... وفِي الجَهلِ أَحياناً إذا ما تَعَذَّرا

الجهل ليس بمعنى عدم العلم، وإنما هو ما يناقض الحلم، ويماشي الخفّة، وخلاف الطمأنينة(٣١)، وهذا الجهل كان طبعا من طباع العرب في الجاهلية، وقد حملهم على خير وشر. والتاريخ يحدّثنا عن هذا كثيرا، ولا يبلغ هذا الجهل غاية طيبة إلا بمزجه بالحلم، وهذا ما يقرره الشاعر هنا، والحلم نفسه يحتاج أن يكون صاحبه قويّا كريما، يسارع إلى العفو، والصفح، والإكرام، ليجعل ذلك سياجا يحمي حلمه، ويثبّت مكانته في الناس. والحلم أساس الحياة السليمة، وبه خير كثير للناس، إلا أن بعض المواقف ينتصر فيها الغضب، وهو حسن محمود.

ومن شعر الدعوة التحذير من أصحاب السوء، والضلال، وإرشاد الناس إلى ما حقّه أن يقوي لحمة الجماعة، وهذا يكون لمن عارف الناس، وخبرهم، والجعدي واحد ممن اتخذهم الدهر صديقا، إذ طال عمره، وجرب معادن الناس، فيقول [من بحر المتقارب](٣٢):

فَلا أُلفِيَنْ كاذباً آثماً ... قَديمَ العَداوَةِ كَالنَّيرَبِ
يُخَبِّرُكُمْ أَنَّه ناصِحٌ ... وَفِي نُصحِهِ حُمَّةُ العَقرَبِ
إِذَا ناءَ أَوَّلُكُم مُصعِداً ... يَقُولُ لآخِرِكُم صَوِّبِ
لِيُوهِنَ عَظمَكُمُ لِلعِدى ... وَعَمداً فَإن تُغلَبُوا يَغلِبِ

التحذير من النفاق، وأهله مطلب ديني، الأمر الذي تجرد له الجعدي في شعره محذرا، وقد ابتدأ الحديث بتوجيه النهي إلى نفسه، كي لا تتخذ سبيل المنافقين سبيلا، ليقدم النصيحة بشكل مناسب، فيه تلميح، وتعريض بأهل هذه التجارة الخاسرة؛ نافيا أن يكون يحمل في طياته العداوة، والسخيمة؛ متزيّنا بثوب النصح، موجّها سلاحه إلى ظهور الجماعة، مريدا من وراء ذلك النيل من وحدة الصف، وتمزيق الشمل، ليوهن قوة المجتمع.

ولشعر الدعوة ألوان مختلفة، منها دعاء الله تعالى أن يجازي صاحب المعروف جزاء حسنا، وأن يحفظه من أي مكروه، وقد قال الرسول ﷺ: "مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ"(٣٣)، وللجعدي في هذا شعر جميل، وفيه يقول(٣٤):

فَلاَ يُبعِدَنْكَ اللَهُ إن كانَ حادِثٌ　　أَصابَكَ عَنّا نازِحَ الدارِ نائِيا
وَلكِن جَزاكَ اللَهُ حَيًّا وَهالِكًا　　عَلى كُلِّ حالٍ خيرَ ما كانَ جازِيا
فَلَم يَبقَ مِن تِلكَ الديارِ وَأَهلِها　　سُرَى الليلِ والأَيّامِ إلاَّ مَغانيا
إذا أَتَيا حَيًّا كِرامًا بِغِبطَةٍ　　أَناخا بِهِم حَتّى يُلاقُوا الدَواهِيا

والشاعر يضمر لهذا الرجل المحبة والتقدير، وما ذاك إلا لأنه يستحق ذلك؛ من وجهة نظر الشاعر، ولابد أن المثني عليه قد أظهر ما من حقه أن يحمد عليه.

- **البند الثالث؛ شعر الجهاد في سبيل الله تعالى**

من الأغراض الوليدة في عصر صدر الإسلام شعر الجهاد، والجعدي يمدّنا بنص لطيف، يظهر فيه وجوب الخروج في سبيل الله عز وجل، لنشر الإسلام، والجهاد في سبيل ذلك، من خلال حديثه مع زوجته، التي توصيه بذكر الله تعالى، ودموع عينيها تجري كالماء، فيقول [من بحر البسيط](٣٥):

باتَتْ تُذَكِّرُني بِاللَهِ قاعِدَةً　　وَالدَّمعُ يَنهَلُّ مِن شَأنَيهِما سَبَلا
يا بنتَ عَمّي كِتابُ اللَهِ أَخرَجَني　　عَنكُم وَهَل أَمنَعَنَّ اللَهَ ما فَعَلا
فَإِنْ رَجَعتُ فَرَبُّ الناسِ يُرجِعُني　　وَإن لَحِقتُ بِرَبِّي فَابتَغي بَدَلا
ما كُنتُ أَعرَجَ أَو أَعمًى فَيُعذِرَني　　أَو ضارِعًا مِن ضَنًى لَم يَستَطِع حِوَلا

إن هذه الأبيات تظهر نفس صاحبها، المؤمنة بكتاب الله، والمريدة الخير للناس، والبعيدة عن الأنانية وحب النفس، ونحن هنا أمام نص جميل، يمتلئ حيوية، فنرى امرأة قاعدة، لا تستطيع النهوض، والدمع ينهل بغزارة من عينيها، وهي تذكر زوجها اللهَ عز وجل، وتطلب منه أن يبيِّض وجهها في ميدان الجهاد. ونرى رجلا قويّا؛ مؤمنا بالدين إيمانا راسخا، يخاطب زوجته الطيبة، ويرد على دموعها أن كتاب الله تعالى أخرجه للجهاد، وما عليه إلا أن يستجيب، مهما كان الثمن غاليا، ثم يوصيها بالصبر؛ حتى يعود إليها بإذن الله تعالى، وإن أراد الله تعالى له الموت في سبيله، فإنه يطلب منها ألا تبقى بعده بدون بعل، بل تبحث لنفسها عن زوج صالح، ويختم كلامه؛ بأنه ما ينبغي له أن يتخلف عن الرجال، فليس بأعرج أو أعمى فيُعذر، أو مريضا لا يستطيع التحول من مكان إلى آخر، وبهذا يحاكي آية الجهاد، وهي:﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٣٦].

الهوامش

١- قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى: شاعر مفلق، صحابي، من المعمرين. اشتهر في الجاهلية. وسمي " النابغة " لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، قبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي ﷺ وأدرك صفين، فشهدها مع علي. ثم سكن الكوفة، فسيره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها وقد كف بصره، وجاوز المئة. الأعلام، الزركلي، ٨ج، ط١٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م.

٢- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٩٨-٩٩.

٣- قيل: القرن أربعون سنة، بدليل قول الجعدي: ثلاثة أهلين أفنيتهم...وكان الإله هو المستآسا، وقال هذا وهو ابن مائة وعشرين سنة، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، ج٦، ص: ٣٦٣.

٤- معنى المستآس: المستعطَى، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٣، ص: ٦٠٩.

٥- فسّر الأصمعي المنون هنا بالزمان وأراد به الأزمنة، لسان العرب، ج١٣، ص: ٤١٦.

٦- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٦-٥٧.

٧- أنظر معنى الحزور في جمهرة اللغة، ج٢، ص: ١١٨٨.

٨- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٢٢.

٩- أنظر معن شعف في الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٤، ص: ١٣٨٢.

١٠- النعمان (الثالث) ابن المنذر (الرابع) ابن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، أبو قابوس: من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية. الأعلام، ج٨، ص: ٤٣.

١١- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٧٦-١٧٧.

١٢- (٠٠٠- نحو ٦٠ ق هـ): المنذر بن امرئ القيس الثالث ابن النعمان بن الأسود اللخمي، الأعلام، ج٧، ص:٢٩٢.

١٣- هو يوم سفوان لجعدة وقشير على النعمان بن المنذر ولخم، انظر مجمع الأمثال ج٢، ص: ٤٤٣. وسفوان: اسم موضع لبني تميم عند جبل يقال له: سنام ببادية البصرة، انظر كتاب العين، ج٧، ص: ٣٠٨.

١٤- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٧٩.

١٥- المصدر السابق، ص: ١٧٨-١٧٩.

١٦- أيام الخُنان أيام كانت للعرب قديمة، هاج بهم مرض في أنوفهم وحلوقهم فـ"أرختْ العرب بعام الخنان لأنهم تماوتوا فيه، وعظم عندهم أمره. أدب الكتاب، أبو بكر الصولي، اعتنى به: محمد بهجة الأثري، بمصر: المطبعة السلفية، ص:١٧٩.

١٧- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٩.

١٨- المصدر السابق، ص: ٥٣.

١٩- فمعنى مقبوحة: من القبح وهو الإبعاد، انظر لسان العرب، ج٢، ص: ٥٥٢.

٢٠- فاطر: ٤٣.
٢١- الحديد: ٢٠.
٢٢- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٤.
٢٣- الأعراف:٦٢.
٢٤- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٤٩.
٢٥- سبأ: ١٥-١٦.
٢٦- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٥ - ٥٤.
٢٧- الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، ج١٠، ص: ٤٤٠.
٢٨- الأنعام: ٥٩.
٢٩- طه:١١٠.
٣٠- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٨٥ – ٨٦.
٣١- معجم مقاييس اللغة، ج١، ص: ٤٨٩.
٣٢- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٤٠.
٣٣- السنن الكبرى، النسائي، ج٩، ص: ٨٧.
٣٤- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٩٣ – ١٩٤.
٣٥- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٣٧ - ١٣٨.
٣٦- الفتح: ١٧.

المصادر والمراجع

١- الأعلام، الزركلي، ٨ج، ط١٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م.

٢- الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، معمر بن راشد، ٢ج، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، باكستان: المجلس العلمي، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٣هـ

٣- جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد، ٣ج، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٤- ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: د. واضح الصمد، ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٩٨.

٥- السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن النسائي، ١٠ج، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ /٢٠٠١م.

٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٦ج، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م.

٧- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

٨- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ٦ج، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ج٤، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.